بسم الله الرحمن الرحيم «المعروف المنكر والمنكر المعروف»

عند غربة الدين قد يرى أكثر المنتسبة إلى الإسلام فضلاً عن غيرهم ما هو معروف في شرع الله منكراً، وما هو منكر في شرع الله معروفاً، والبدعة سنة والسنة تشدداً وتنطعاً وتنفيراً. وصدق رسول الله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله ومتبعي سنته: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً، فطوبى للغرباء» رواه مسلم، والغرباء هنا: هم الذين يقومون على منهاج النبوة في الدين والدعوة إليه إذا تحول عنه أكثر أهله إلى مناهج البشر الظنية، وتحولوا عنه جماعة المسلمين الواحدة إلى الجماعات والأحزاب الدينية المتعددة، وكل حزب بما لديهم فرحون (وإنه الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء) وبين النبي صلى الله عليه وسلم أكبر سبب يوصل المسلمة إلى هذا التدرك: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يترك عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا» متفق عليه. ومع وجود القلة من علماء الشريعة على منهاج النبوة اليقيني اليوم والكثرة من حملة العلم الشرعي الوظيفي على منهاج الفكر الظني (الموصوف زوراً بالإسلامي)، فإنه الشيطان والنفس الأمارة بالسوء يستجلبان الوصول إلى حال الفرقة في الدين بصرف أكثر المنتسبة إلى الإسلام عن علماء الشريعة الربانية إلى المفكرين (الموصوفين زوراً بالإسلامية) والكتاب والصحفيين والممثلين والمرحين، والقصاص من الواعظين. وكما يوضع السكر على حبة الدواء المر، توضع المحسنات اللفظية والمزينات الفنية على الفكر لظنه الجاهل وحماسه وحي الله وشرعاً من شرعه وفقراً في دينه. وإذا كان من أقرب الأمثلة صلة بالدين: انصراف القصاصين والحركيين والحزبيين من دعاة العصر عن نشر توحيد الله بإفراده بالعبادة، والتمسك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتحذير من إشراك الأولياء مع الله في دعائه وسائر عباداته، ومن الابتداع في الدين (منهاج كل رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وكل رسالاتهم)، فإنه من أقرب الأمثلة صلة بالدنيا ما تفشه أبواق التقليد اللفظي والعمى للمغضوب عليهم والضالين والملحدين من الترغيب في عمل المرأة

خارج بيتها (حتى لا تتعطل نصف المجتمع)! والترهيب من عمل الأطفال (حتى لا تسرقهم منهم الطفولة)! زعموا.

وليتنبه وجه الحق لابد من رد الأمر إلى نصوص الوحي إذا وجدت، أو إلى العقل السليم الذي لم يحرفه التقليد البشعي عن فطرته:

١) لقد أمر الله تعالى نساء نبيه صلى الله عليه وسلم (قدوة المسلمات في كل مكان وزمان) في آية محكمة بالقرار في البيوت: ﴿وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله﴾، وحكم بأنه مسئولية كسب المعيشة على الرجل: ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لنساء المؤمنين: «صلاتكن في بيوتكن أفضل من صلاتكن في مسجد الجماعة» رواه ابن خزيمة (صحيح الترغيب)؛ فكيف بما دون الصلاة من لهو، أو من عمل لم يضطرهن الله إليه؟

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للرجال والنساء من أمته: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته؛ فالرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت بعلها وهي مسئولة عن رعيتها» متفق عليه.

ومن هذا الوحي النبوي من كتاب الله وسنة رسوله يتبين لمن تدبره أن الله تعالى قسم العمل المشترك بينهما: فعلى الرجل والمرأة: عليهما تحمل مؤونة أهلهما بكسب المعيشة خارج البيت، وعلى المرأة: تهيئة أسباب المعيشة داخل البيت، وتحقيق فطرة الله لها وقدره عليها يوم خلقها: ﴿ليسكن إليها﴾ زوجها، وتربية أطفالها حتى يؤهلهم الله لتحمل تكاليف الحياة داخل البيت أو خارجه حسب الاختيار الحكيم الثابت لخالقهم وليس تبعاً لأهواء البشر المتقلبة القاصرة.

ولقد يسر الله كلاً من الرجل والمرأة لما خلقه له (متفق عليه)، وميزه بصفات عقلية وجسمية وعاطفية مختلفة تناسب وظيفته في الحياة، (بعد الوظيفة العظيمة المشتركة بينهما وهي: عبادة الله وحده لا شريك له بما شرعه من عبادات مفروضة أو مسنونة: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾. وإنما يظن الخراصون بأنه انصراف المرأة لشئون بيتها وزوجها وأولادها تعطيل أو حبسة لها: الجهل أو فصل

لاختيار الله لها وفطرته وشرعه وأمره.

ومع انتشار البطالة ونقص الوظائف والحرية اليوم عند الموظفين للعمل من الرجال في مختلف أنحاء العالم؛ فإن الدعوة لعمل المرأة خارج بيتها تزيد في استفحال المشكلة الاقتصادية، وتنقل مسئولية المرأة عن الإدارة والرعاية والتربية البيتية إلى الخادمات والمربيات المستقدمات من بيئات غريبة جاهلة، وكما أنه: (ليس الذكر كالأنثى) فليست تكوين الأجيرة كالأم والزوجة.

ويعكر بليس وتعكر النفس الأمارة بالسوء (أعاذنا الله منها) فيسوّلان لبعض المسلمين العصر - باسم الإسلام - مخالفة فطرة الله للمرأة وشرعه لها بإخراجها من أمنها بيتها وجرها إلى فتنة السوق بإنشاء المصارف والأسواق والملاهي النسائية، بل والمساجد النسائية المستقلة أو الملحقة بالمساجد العامة. وهي دعوة عملية لتزيل المرأة من بيتها للأغراض الدنيوية، أو الدينية التي لم تفرض ولم تستحب لها.

لقد أباح الشارع للمرأة الصلاة في مسجد الجماعة (رخصة لا عزيمة، وخلافاً للأولى الذي رغب النبي صلى الله عليه وسلم فيه وخصوصاً في حقها) خلف الرجال (وبعزل عنهم كما يفعل المتنطعون اليوم).

ب) أهم ما يتعلمه الطفل - بعد دينه - تحمل مسئولية نفسه وغيره، بقدر تكليفه واستطاعته، والمدرسة اليوم غير مؤهلة لتعليم ذلك بل هي في الواقع تعلمه الاعتماد على غيره في العلم والعمل.

فإذا هيأ الله له الأسباب في سنة مبكرة؛ فلا يجوز لنا رده إلى عادة الاستهلاك، وإذا هيأ له قدر الله عليه حتى حظاه إلى مرحلة الرجولة المقبلة والاعتماد على نفسه - بعد الله - وإعانة أهل المحتاجة إلى عونه؛ فلا يليق بنا رده إلى مرحلة الطفولة ومدها تعسفاً حتى يزهى دراسته، لتظل عالة على غيره، ويعيشه في سنوات نموه حياة الكسل والبطالة المفتقرة إلى الترف والحرية والإذاعة والألعاب الآلية، وبه المآكل الناعمة قليلة التغذية من مطاعم الوجبات السريعة. وفرحة الطفل بعمله وإنجازه أكثر من فرحته بلعبه، وعلى من يهتم بالطفولة أن يحرص على تعليم القراءة والكتابة والأرقام بمدرسة عمله اليومي في كسب معاشه، وذلك خير للطفل وللأمة

من ضياع سنّي عمره الأولى في التظاهر بالإعداد لمستقبل لا يعلم إلا الله حدود وقته ونوعه (فالموت لهو المستقبل الوحيد المؤكد لابن آدم الطفل أو الشيخ)، وحبر النقص وتقويم الاعوجاج خير من التقليد الشكلي بتركيز الاهتمام على من يوصفونه حقيقة أو خيالاً بالموهوبين كمثل أحدوثة الراعي الأصمه الذي قيل إنه بطوله سماد الفهم في المرعى ويحبس عجافاً بحجة التمشي مع قدر الله لها. والطفل الضعيف (لأي سبب) لهو الجدير بالاهتمام الخاص حيث تشتد حاجته إليه، أمّا الموهوب - إذا كان متميزاً حقاً - فهو أقدر على الاهتمام بنفسه.

ولقد بنيت لي من دراستي النظرية ومعارستي العملية في حقلي الشريعة البقيعة والتربية الظنية أكثر من نصف قرن (في الداخل والخارج) ما يلي:

١) أنه من خير ما يفترض أن تدرب المدرسة الطفل عليه: تحمل تكاليف الشريعة والحياة، وحسن معاملة خلق الله من الناس والدواب والأنعام والجماد. ولكن الواقع يؤكد أن نصيب من النجاح في تأدية هذه الأغراض العظيمة ضئيل جداً.

٢) وأنه من خير ما يفترض أن تعلم المدرسة الطفل: حب العلم والرغبة في تحصيله داخل التنظيم التعليمي وخارجه، أو كما يقول المثل الخيالي: (من المهد إلى اللحد). ولكن نصيب من النجاح في تحقيق هذا الفرض لا يزيد عن سابقه.

٣) بل الحقيقة أن نظم الدراسة المستوردة ومنهج طريقة التعليم ذات الاتجاه المحدد الواحد (من فم المعلم إلى أذن الطالب)، والسباقة الظالم غير المتكافئ) تعلم الطالب - دون قصد - كراهة المدرسة والضجر من الدراسة والتطلع إلى توقف التعليم بانتهاء الحصة واليوم الدراسي، أو بحلول العطلة المدرسية، أو بالتخرج من المدرسة، أو بترك الدراسة.

٤) أشهر المخترعين والمبدعين في التاريخ لم يصلوا إلى الإنجاز والشهرة بسبب المدرسة بل بالرغم منها، وكثير منهم تركها (في إحدى مراحل الدراسة) لم يستفيضوا بالشهادات والألقاب الدراسية عن العلم، كما قد يستفيض المسكري عن الشجاعة بالأوسمة والنياشين في رأي شاعرنا الخالد المتنبي

عند الحال في أمريكا، وهي قدوة الأغلبية، ولو لعنوها.

٥) مرتبة المسلم في الحياة أعظم من كل اختراع صناعي ومن كل إبداع جمالي ومن كل هدف فني: الالتزام بشرع الله على منهاج النبوة علماً وعملاً ودعوة لإخراج نفسه وغيره من الظلمات إلى النور، قال الله عز وجل: ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾، والمدارس العامة والخاصة لا توهل لذلك.

٦) أما الدنيا فالكافر أسيرها إليه دائماً وهو أولى بها بل هو الأصل فيها، قال الله تعالى: ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون﴾ وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين﴾. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» رواه مسلم.

٧) ومن يسير في الأرض فينظر ويتفكر يجد أن كل المنجزات الفنية المادية وتنتمي الأصل من إنتاج: الهندوس والأيابطو الفراعنة والسومانيين والرومانيين والإنكا وغيرهم، والمنجزات الحديثة المادية لغير المسلمين. وسيظل المسلمون (ما تمسكوا بدينهم) هم الأقل في متاع الدنيا وعلومها؛ فلم يلتفتوا الأوائل إلى علوم الدنيا اليونانية، ولم يلتفتوا إلى ترف الملبس والمسكن والمركب في العراق وفارس والشام ومصر واسبانيا إلا بعد ضعف تمسكهم بالدين والعودة إليه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم» متفق عليه. وصلى الله وسلم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه ومتبعي سنته إلى يوم الدين.